دراسة تحليلية لمفهوم الإرجاعية من خلال طرحين

(الطرح المعرفي والطرح التحليلي)

ياحي سامية

ملخص

نحاول أن نتناول من خلال هذا المقال مفهوم الإرجاعية بدءا بعرضنا للتطور التاريخي له، ثم تحديده لغويا من أجل اختيار المصطلح الذي سنتبناه في هذه الدراسة وهذا من جملة مصطلحات استعملها باحثون للتعبير عن معنى الإرجاعية (الجلد الراب، المرونة، التلاؤمية). بعدها قمنا بتحليل المفهوم من خلال طرحين ألا وهما الطرح المعرفي والطرح التحليلي .

مقدمة:

يتعرض الفرد خلال حياته اليومية إلى شدائد ومحن مختلفة قد تكون مشاكل مادية أومعاملة والدية سيئة أو طلاق أو فقدان شخص عزيز أو مرض خطير... الخ .

ظن الباحثون النفسيون ولسنوات عديدة أنه غالبا ما تؤدي هذه الأحداث المؤلمة إلى اضطرابات نفسية وعقلية رغم أن الواقع يدحض ذلك ويعاكس هذه النظرة الميكانيكية السلبية، فهناك من ينهار أمام مثل هذه الظروف وهناك من يقاومها ويتكيف معها ويخرج منها بشكل إيجابي واتفق العديد من الباحثين أمثال:

1982, 1992, Rutter, 1987, Garmezy1990, Werner et Smith (نقلا عن Magali et al, 2000, p782) على تسمية ظاهرة التكيف هذه بالإرجاعية (Résilience).

جاءت الأعمال الأولى حول مفهوم الإرجاعية من الدول الأنجلوسكسونية ودول امريكا الشمالية حيث سمحت مراجعة الأدبيات بتحديد ظهور المفهوم إلى بداية الثمانينات في حين يرجع بعض الباحثين التحليليين جذور المفهوم إلى الأعمال الأولى حول التعلق(attachement) (Anaut, 2003, p37) كما ينسب ماستن والاخرين(2001)"Masten et al"(نقلا عن Anaut, 2003, p3) المصطلح إلى بولبي (Bowlby) باعتبار هذا الباحث اول محلل نفساني ركز على الصدمة بينما يعتبر البعض الأخر من المحللين ان فرويد (Freud) هو واضع القواعد الإبستمولوجية لهذه المقاربة والتي تبرز في مصطلح الإعلاء(Anaut, 2003, p37 (sublimation)) .

اهتم العديد من الباحثين العاملين في مجال علم النفس المرضي التطوري وأغلبيتهم من الدول الأنجلوسكسونية خلال السبعينات والثمانينات من القرن المنصرم بالأطفال الذين يظهرون بناءا قويا وكانهم لم يتاثروا بضواغط وشدائد الحياة (Rutter, 1985)، ووصف هؤلاء في البداية بعدم القابلين للتاثر انتوني وكوبرنيك(1974) " Anthony et Koupernik " (نقلا عن Magali et al, 2000, p782) لاحظ انتوني "Anthony" ان الأطفال ليسوا متساوون امام الخطر، فقابليتهم للتاثر متنوعة ولتوضيح هذا استعان باستعارة الدمى الثلاث،إحداهن من زجاج واخرى من البلاستيك والأخيرة من حديد، وحين التعرض لضغط خارجي (ضربة مطرقة)، تنكسر الدمية المصنوعة من زجاج وتحمل الدمية المصنوعة من البلاستيك جرح لا يندمل وتبقى الدمية المصنوعة من حديد على صفتها السابقة إذ تشير هذه الأخيرة إلى عدم القابلية للتاثر (invulnérabilité) " نفس العبارة تبناها العديد من الباحثين لكن سرعان ما تخلوا عنها لرفضهم لفكرة المقاومة المطلقة للأشخاص (Anaut, 2003, p31).

تراجع انتوني "Anthony" عن هذه الاستعارة فيما بعد بتخفيفها (Szeman, 2006, p31) كما انتقد مصطلح عدم التاثر ايضا بسرعة من طرف روتر (1985) "Rutter" (نقلا عن Magali et al, 2000, p782) لأن قواعد أو ركائز الضغط ليست فقط على مستوى بناء الفرد لكن أيضا على مستوى المحيط وهكذا فضل العديد من الباحثين ممن انجزوا ابحاثهم على نفس الفترة الزمنية امثال: Garmezy et Smith1990, Werner 1982, 1992, Rutter, 1987 (نقلا عن Magali et al, 2000, p782) لفظ الإرجاعية واضعين بذلك حدا لديكتاتورية عدم القابلية للتاثر ومن هؤلاء الباحثين الأنكلوسكسونين ويرنر "Werner" وهي اخصائية نفسانية استعملت هذه الكلمة لوصف هؤلاء الأطفال وذلك إستنادا إلى البحث الطولي الذي قامت به حول دراسة مستقبل مجموعة من اطفال كاواي (أرخبيل في جزر هاواي) ممن يعيشون في ظروف مزرية توصلت من خلال نتائجها أن هؤلاء الأطفال تكيفوا مع ظروفهم الصعبة حيث تمكنوا من الارتداد بعد التغلب على الوضعيات الصعبة وتجاوزها (Anaut, 2003, p38).

من الأعمال الأخرى التي ساعدت على ظهور هذا المفهوم ابحاث العالم النفساني غارميزي "Garmezy" حول عوامل الخطر عند اطفال اولياءهم مصابين بالفصام (Tisseron, 2007, p17). سمحت هذه الدراسات بتوضيح قدرة العديد من الأطفال المعرضين للخطر وذلك على المستوى المرضي النفسي وعلى التطور والنمو بطريقة عادية (Gousset, 2008, p524).

درس ميخائيل روتر (1985) "Rutter" (نقلا عن Shweitzer) العوامل التي تحمي الأطفال الذين عانوا من حرمان شديد وتوصل إلى أن الأطفال الإرجاعيين يتميزون بعدد من الخصائص الإستعدادية والمحيطية والتفاعلية أو كما يسميها روتر "Rutter" بعوامل الحماية .

انتشرت الأبحاث الأنجلوسكسونية حول هذا المفهوم الجديد فظهرت دراسات عديدة لباحثين تركوا بصماتهم في هذا الميدان امثال الإخوة وولان(Wolin) ، سيغال

(Segal)، ماستن(Masten) سميث(Smith)، ولوتير(Luttar) (Szerman, 2006, p32).

تأثر باحثون اخرون من وراء المحيط بهذه الأبحاث فظهر عدد من الباحثين الفرنكفونيين كسيرولنيك (Cyrulnik) والذي كان له الفضل في إدخال كلمة (Résilience) إلى اللغة المتداولة في فرنسا كما استطاع أن يؤثر في عدد كبير من قراءه.

ذاع صيت مفهوم الإرجاعية في البلاد الفرنكفونية، فظهرت على غرار ابحاث سيرولنيك (Cyrulnik) اعمال مختلفة لباحثين آخرين امثال (Vanistandael, Tomkiewicz, Manciaux, Bourgnion) والذين اثروا هذا المفهوم الجديد (Szerman, 2006, pp33-35)

بعد هذه القراءة التي استعرضنا فيها بدايات ظهور المفهوم بتقديمنا لأبحاث ودراسات باحثين مختلفين نحاول فيما يلي تناول هذا المصطلح بالتحليل والمناقشة من خلال طرحين ألا وهما الطرح المعرفي والطرح التحليلي.

تعريف الإرجاعية لغويا:

يطرح مفهوم (Résilience) مشكلة ترجمته إلى اللغتين الفرنسية والعربية على حد سواء فقد ترجم في اللغة الفرنسية إلى Résilience ولكنها ترجمة لا تغطي المعنى الصحيح.

الإرجاعية كلمة فرنسية مشتقة من اصل لاتيني (Resiliencia)، استعملت في اللغة الإنجليزية منذ 1626م من طرف (فرنسيس باكون) في كتابه سليفا سلفاريوم (Simpson et Weirner, 1989)ثم تناوله فيما بعد انري مور (More) في الحوارات المقدسة (1668) وكان إستعمالها لأول مرة من طرف موروا (Mourois) في (Lélia ou la vie de George Sand) وذلك في سنة 1952م (Ionescu 2008, p4)

حسب القاموس التاريخي للغة الفرنسية فإن مصطلح(Resilencia) مكون إشتقاقا من (Re) والذي يدل على الحركة إلى الوراء، او التراجع (retrait) و(salire) والتي تعني (القفز، الوثب)، إذن تدل الكلمة ككل (Resilier) على القفز او الرجوع إلى الوراء اما كلمة (Resilencia)فهي الفعل الذي يوضع من خلاله نهاية او حد إلى التزام، عهد او عقد ما. (Anaut, 2003, p35). إحتفظ الأنجلوسكسونيون من هذا المعنى بالتراجع إلى الوراء بهدف القفز الجيد امام وضعية صعبة (p4, Tisseron, 2007).

لما نبحث في الترجمة العربية، نجد مفاهيم كثيرة بعيدة عن المعنى الحقيقي لـ(Résilience) حيث استعملت مريم سليم ومريم الشعراني(2003) كلمة الراب وذكر في ملتقى بيرزت (2007) كلمة الجلد اما محمد جواد الخطيب(2007) فيستعمل كلمة مرونة الأنا، ويفضل مصطفى حجازي (2006) تسميتها بالتلاؤمية (اي المرونة الذهنية والسلوكية) في حين اطلق عليها عبد النور كلمة رجوعية (عبد النور، 1996، ص910).

عندما نرجع إلى معاني كل هذه الكلمات ونحاول مناقشتها من اجل الوصول إلى المصطلح الذي يمكن تبنيه في بحثنا هذا نجد ان الراب من فعل راب، راب، رابا: اصلح ازال الفساد. (المنجد في اللغة العربية،2001، ص520).

فالراب إذا كلمة تحمل معنى الإصلاح، دون الإشارة إلى العوامل الخارجية او التطور والنمو الإيجابي الذي يحصل للشخص مثلما سنوضحه في تعريف الإرجاعية.

أما الجلد فهو القوة والشدة، القوة والصبر، الجلادة والجلادة والاسم الجلد والجلود والتجلد: تكلف الجلادة، وتجلد:اظهر الجلد (ابن المنظور،2003، ص178).

تشير كلمة الجلد إلى الدرجة او الشدة والمقصود بها شدة الصبر، فحقيقة الإرجاعي شديد الصبر لكن ليست الميزة الوحيدة التي ينطوي عليها بل هناك ميزات اخرى سنتطرق إليها لاحقا (في تعريف المفهوم) بالإضافة إلى العوامل الخارجية

كالولي الإرجاعي والسيرورة والتطور وكذا النمو العادي أو الإيجابي الذي يمر به الإرجاعي.

وتشتق كلمة مرونة من فعل مرن، مرانة : أي لان في صلابة، ملس،تعود على الشيء ومهر فيه، درب (إبراهيم مصطفى، 1989، ص 865).

فالمرونة إذن هي أن يجد الفرد الطرق الملائمة للتخفيف من وطأة الصراعات الداخلية وكذا تحقيق علاقة سلسة غير صلبة مع افراد محيطه.

والتلاؤمية، من فعل تلاءم : تلاءم القوم والتأموا : اجتمعوا واتفقوا، وتلاءم الشيئان إذا اجتمعا واتصلا ويقال ائتأم الفريقان والرجلان إذا تصالحا واجتمعا. (ابن المنظور، 2003، ص09). فالتلاؤم إذن هو ان يجد الإنسان الصيغ الملائمة في داخله أو من خلال علاقته الاجتماعية لكي يخلق علاقة طبيعية مع مجتمعه أي ان يتلاءم مع ما يحيط به ويقلل من فعل الصراع والاختلاف لكن ليس هناك ما يدل في هذا المصطلح على النمو العادي والتطور الإيجابي امام وضعية ضاغطة.

استعمال كلمة رجوعية للدلالة على (Résilience) مستمد من الفيزياء والذي يعني رجوع الجسم الممطوط لحالته الطبيعية (عبد النور، 1996، ص910).

يكمن الفرق بين الرجوعية والتلاؤمية في ان الأولى يجب ان تتوفر فيها سلسلة من العوامل الداخلية وربما حتى الخارجية التي تدفع بالفرد إلى التراجع وفق قناعة داخلية، اما الثانية فهي أن يجد الإنسان الصيغ الملائمة في داخله او من خلال علاقته الاجتماعية لكي يخلق علاقة طبيعية مع مجتمعه اي ان يتلاءم مع ما يحيط به ويقلل من فعل الصراع والاختلاف لكن ليس هناك ما يدل في هذا المصطلح على النمو العادي او التطور الإيجابي امام وضعية ضاغطة.

ورجع هو فعل ثلاثي (مجرد لازم) يكتفي بفاعله عن المفعول به (اي يستغني او لا يحتاج إلى مفعول به) وبزيادة الهمزة في اوله (ارجع) يصبح فاعله (اي الفاعل . مفعولا

والقاعدة الصرفية: معنى زيادة الهمزة (افعل)،التعدية: وهي جعل الفعل اللازم متعديا (مثلا رجع) فيصبح الفاعل بعد زيادة الهمزة على الفعل مفعولا به (مثلا ارجع). (ياسين الحافظ، 2004، ص43).

انطلاقا من هذا فإن (ارجع) تدل على وجود فاعل آخر(مؤثر او عامل خارجي) اي الذي يجعل من الفاعل الأول مفعولا به (اي وقع عليه فعل الفاعل) وهذا تماما ما يحصل للإرجاعي الذي بسبب الشدة يحتاج إلى مساعدة خارجية(عامل، مؤثر خارجي) للرجوع او العودة إلى الحالة السابقة، والفعل رجع: يعني عودة او لزوم الفاعل (الشخص) لحالته السابقة اي الحالة البدئية التي كان عليها، وتحقق معنى الرجوع (طبقا للحالة السابقة)، وجاء في كلام العرب قولهم ارجعت الناقة: اي ضعفت وهزلت ثم سمنت. (جبران مسعود،1981، ص79).

يفترض وجود حالة سابقة هي حالة السمنة ثم الضعف والهزال ثم العودة للحالة السابقة الأولى وهي حالة السمنة فمن البديهي وجودها لأن ملاحظة حالة الضعف والهزال إنما كان بالمقارنة مع حالة السمنة سابقا وهو ما دل على وجودها في السابق، ووقوع خلل او مرض.

وارجع، إرجاع، إرجاعية، كسر آخر الاسم (إرجاع، مع إضافة ياء مشددة ثم تاء مربوطة في آخره) مصدر صناعي يدل على الخصائص الموجودة في الاسم الذي صيغ منه وهو إرجاع.(ياسين الحافظ، 2004، ص99)

الإرجاعية وهي على وزن إفعالية (عبده الراجحي، 1973ص69):الصيغة تقتضي دائما وجود فعل خارجي يتم فعل التراجع من خلاله (اي وجوب حضور الفعل الخارجي)، الفعل الحاسم فيه هو الفعل الخارجي وليس الفعل الداخلي.

نظرا لأن كل من المصطلحات المقدمة سلفا (الراب، الجلد، المرونة، الرجوعية) لا تحمل في معانيها دور العوامل الخارجية التي تساعد الفرد أمام الشدائد بالإضافة إلى عدم وجود أي إشارة إلى النمو والتطور الذي يحصل بعد الشدة، وهذا ما يجعلنا نستبعدها.

اما عن مصطلحي التلاؤمية والإرجاعية فهما الأقرب إلى معنى كلمة (Résilience) حسب نظرنا فالمصطلحان يهدفان إلى التكيف بمساعدة عوامل خارجية وداخلية، وتدل الإرجاعية على الارتداد كما انها تشير إلى التحسن والتطور وهذا ما يجعلنا نميل أكثر إليها ونتبناها خلال بحثنا هذا.

للإرجاعية تعريفات عديدة ومتنوعة تدل على وجود صعوبات في تحديد هذا المفهوم إذ يعكس كل تعريف خبرة وتجارب وخلفية نظرية كل باحث فقد تم تبني مصطلح الإرجاعية من طرف نظريات وتناولات مختلفة مما يؤدي إلى كم كبير من التعاريف التي تتعلق بهذا المفهوم حسب المنظور التطوري المعرفي، وحسب المنظور التحليلي وحسب التناول الإكلينيكي، السكوباتلوجي او الاجتماعي التربوي، نجد إفراط للتعاريف والتي أحيانا تتفق وأحيانا أخرى تختلف .

سنتفحص فيما يلي بعض هذه التعريفات وذلك بداية حسب المنظور المعرفي التطوري ثم المنظور التحليلي.

يعرف روتر (1987) "Rutter" (نقلا عن Magali, 2000, p782) الإرجاعية بالفعل الذي يبقي على توازن تكيفي عند الفرد بالرغم من وجود تهديد في المحيط. ويعرفها غارميزي (1991) "Garmezy" (نقلا عن محمد الخطيب، 2007، ص 1054) باعتبارها القدرة على إعادة بناء الشخصية والقدرة على التشافي من المحنة كما يعرفها ايضا غارميزي (1993) "Garmezy" (نقلا عن Tisseron, 2007, p11). بمدى قدرة الفرد على التكيف الاجتماعي إذ انها بالنسبة إليه سيرورة قدرة او

نتيجة لتكيف جيد رغم الظروف والمواقف او التحديات والمحن التي يمكن ان تعترض الفرد.

ترى ليفتون (1993) "Lifton" (نقلا عن محمد الخطيب، 2007، ص 1054) بان المرونة تعني ايضا إعادة التشكيل والتغيير في الشخصية.

كما تشير ويرنر(1995) "Werner" (نقلا عنIonesco, 2008, p13)بان الإرجاعية هي التكيف الناجح بعد التعرض إلى عوامل خطر (بيولوجية و/او نفسية اجتماعية و/او احداث حياة ضاغطة).

وتعرف ستينهير (1998) "Steinhauer" (نقلا عنMagali, 2000, p782) الإرجاعية ايضا بمهارة الشخص في استرجاع مستوى تكيفه السابق او مستوى اعلى بعد التعرض للضغط .

وجاء في تعريف روتر (1999) "Rutter" (نقلا عن Grosbois, 2009, p12) ان الإرجاعية سيرورة دينامية تطورية، تتنوع حسب الطبيعة وسياقات الصدمات ومراحل الحياة والمصادر المعرفية والعاطفية والدافعية وكذا المصادر النفسية والاجتماعية للأفراد .

يربط ريتشارد سون(2002) "Ridchardson" (نقلا عن Cambell-Sills et al, 2005, p2) الإرجاعية بالتطور الإيجابي بعد التعرض للشدة .

وتعرف لوتر (2003)"Lutter" (نقلا عن Gousset, 2008, p524) الإرجاعية بظاهرة التكيف الإيجابي بالرغم من سياق محيطي صعب خاصة .

وينظر بونانو (2004) "Bonano" (نقلا عن Grobois, 2009, p12) إلى الإرجاعية بأنها ليست مجرد الارتداد من الشدة حيث يكون الفرد إرجاعيا أمام التجارب الضاغطة والصدمية والشدائد حينما يكون قادرا على مقاومة عدم التكيف وتطوير قدراته(ses compétences) وذلك بتسخير او حشد مصادره البيولوجية والنفسية والمحيطية .

وتعتبر غروتبرغ "Grotberg" (نقلا عن Szerman, 2006, p32) ان الإرجاعية ليست فقط فردية لكن يمكن أن تكون جماعية فتعرفها بالقدرة العالمية والتي تسمح للفرد او الجماعة او الطائفة بتجاوز الآثار المضرة للمحن .

اما مصطفى حجازي (2005) والذي يفضل تسميتها بالتلاؤمية (اي المرونة الذهنية والسلوكية) فيعرفها بتلك القدرة على تدبير الأمور في الظروف الصعبة او المهددة او حتى في حالات المحن بمقاربة فعالة وناجحة، إنها تلك القدرة على تعبئة الطاقات الذهنية والمهارية بغية القيام بالتصرف الجيد في الظروف التي تفترض المعوقات على النجاح وتهدد نتائجه، إننا بصدد الأشخاص الذين يصمدون في وجه المحن ويخرجون منها بشكل إيجابي .كل شيء في ظروفهم يدعو إلى إطلاق الأحكام المتشائمة والرؤى السلبية او المأزقية (احكام اللاجدوى من المحاولة)، إلى انهم يبدون وكأنهم قادرون على الإفلات من المحنة، إنهم يفتشون بما يتبقى من إمكانات اكثر من التوقف عند العقبات والمشكلات ما هي الوسائل واساليب التصرف الممكنة والناجحة وكيف يمكن تفعيلها وتعظيمها وليس التفتيش عما هي الأزمات والمعوقات التي تضع المرء أمام الحائط المسدود. (مصطفى حجازي، 2005، ص334)

ويعرفها محمد الخطيب (2007) بالقدرة على مواجهة ضغوط الحياة وتحدياتها الصعبة وان يحيا الإنسان فيها حياة كريمة وهي المقدرة على التفاعل اجتماعيا مع الآخرين والصفح والأمل، وان يجعل الإنسان معنى للحياة فيها .(محمد الخطيب، 2007، ص1054).

اما بالنسبة للتحليليين :

يعرفها سيرولنيك (1999) "Cyrulnik" بالقدرة على النجاح والتطور الإيجابي والعيش بطريقة مقبولة اجتماعيا بالرغم من الضغط والشدائد والتي تشمل عادة على مخرج سلبي ذو خطر كبير .

وبالنسبة لفنيستندل "Vanistandael" (نقلاعن poletti, Dobbs, 2001, p10) مصطلح الإرجاعية اكثر ثراءا واكثر كما لا من قدرة الفرد على التجاوز إذ يتكون هذا المصطلح من بعدين :

1- مقاومة الدمار (La destruction) اي قدرة الشخص على المحافظة او حماية نفسه امام الضغوط.

2- قدرة بناء وإبداع حياة جديرة بأن تعاش رغم الشدائد.

ويصف منسيو (1999) "Manciaux" (نقلا عن Terrise, 2009, p255) الإرجاعية بقدرة الفرد على إعادة بناء نفسه بعد الصدمة.

كما ذهب فنيستندل ولو كنت(2000) "Vanestandael et le conte" (نقلا عن Tisseron, 2007, p11) إلى ابعد من هذا حيث اعتبرا الإرجاعية مفتاح السعادة وهو الشيء الغالب عن التعريفات الأخرى.

ويرى سيرولنيك (2001) "Cyrulnick" (نقلاعن Anaut, 2003, p34) بانه لكي تكون إرجاعية يجب ان يكون هناك تعرض للصدمة او سياق صدمي وهذا ما يتفق عليه العلماء من ذوي التناول التحليلي والذين يعتبرون الصدمة عاملا للإرجاعية.

وفي نفس الصدد يعرف ديتشي (2001) "Detchy" (نقلا عن Anaut, 2003, p34) الإرجاعية بقدرة الفرد على بناء نفسه والعيش بطريقة مرضية رغم الصعوبات والوضعيات الصدمية التي يمكن ان يواجهها.

ويضيف سيرولنيك(2001)(نقلا عن Delage , 2009, p173) إلى تعريف الإرجاعية النمو الجديد ويواصل انه يجب ان نظيف إلى هذا البعد التطوري مظهرا خر متضمن في فكرة ولي إرجاعي (Tuteur de la résilience)، إنه المظهر التفاعلي (Interactionnel) والعلائقي الذي بدونه لا يمكن التكلم عن الإرجاعية فالفرد لا يمكن ان يكون إرجاعي لوحده .

وبالنسبة للتحليليين الأخرين يدل مصطلح الإرجاعية على مسار نفسي قريب مما أسماه فرويد بالإعلاء (Sublimation) ويعبر على تغيير النتائج الصعبة القاسية للصدمة بالمصادر او الثروات الداخلية (Tisseron, 2007, p11).

في حين لا يقبل آخرون بإطلاق لفظ الأفراد الإرجاعيين إلا على الأفراد القادرين على إحترام ذواتهم والآخرين بالإضافة إلى إمتلاكهم قدرة التعاطف"compassion". (Polletti, Dobbs, 2001, p11) .

وتستمر الجهود التي قام بها المختصون في تحديدهم للإرجاعية، فتعرفها انو Anaut" (2005) " بالخروج منتصرا من شدة قد تكون صدمية مع قدرة مجددة بالإضافة إلى أنها تستلزم التكيف أمام الخطر والتطور بصورة عادية رغم المخاطر واسترجاع (ressaisissement) الذات بعد الصدمة.

تضيف الباحثة ان كل النظريات التي عرفت مفهوم الإرجاعية تتفق على ان هذه الأخيرة تدل على النمو العادي رغم الأخطار من جهة وعلى استرجاع الذات بعد الصدمة من جهة اخرى. (Anaut, 2003, p34).

يتضح من خلال هذه التعريفات التي عرضناها انه بالنسبة للطرح المعرفي يربط بعض الباحثين الإرجاعية بالتوازن التكيفي الناجح او التكيف الإيجابي للفرد امام الضغوط والشدائد (Werner, 1995, Lutter, 2003, Rutter, 1999) فيما يرى فيها اخرون إعادة بناء او تشكيل الشخصية بعد الشدة (Lifton, 1993, Garmezy, 1991) وقد تدل الإرجاعية على الصمود في وجه العقبات والخروج منها بشكل إيجابي بعد القيام بالتصرف الجيد او ان يحيى المرء حياة كريمة بعد الشدة يكون فيها قادرا على التفاعل الاجتماعي (مصطفى حجازي 2005، محمد الخطيب 2007)، ومن الباحثين من لا يقصر الإرجاعية على مجرد الارتداد اي الرجوع إلى الوضعية السابقة (Bonnano, 2004, Richadson, 2002) بل تجاوز الشدة وتحقيق تطور إيجابي اي تحقيق إنجازات.

نلاحظ ان اغلب هذه التعاريف ركزت على جوانب من الإرجاعية، الارتداد التطور الإيجابي والتغيير الذي يحدث في الشخصية بعد التعرض للضغط لكن روتر (1999) Rutter يؤكد ان الإرجاعية اشمل واوسع من ذلك وهذا بوصفه لها بالسيرورة الدينامية التطورية والتي تتنوع حسب طبيعة الظرف الخطر والسياقات الصدمية ومراحل حياة الفرد وكذا التجارب والمصادر المعرفية التي يمتلكها.

إن كان الباحثون من ذوي التوجه المعرفي التطوري يركزون على الشدائد والمحن أو الأوضاع الضاغطة التي تعترض الفرد وتؤدي إلى ظهور الإرجاعية، فإن العلماء من ذوي التناول التحليلي يربطون الإرجاعية بالسياق الصدمي اي ان الصدمة هي عامل للإرجاعية وهذا ما يحدده ايضا سيرولنيك (Cyrulnik, 2001) (نقلا عن Anaut p34, 2003) بانه لكي تكون إرجاعية يجب ان تكون بالفعل مواجهة مع الصدمة او سياق صدمي.

و يعد سيرولنيك (Cyrulnik, 1999, 2001) من اكثر العلماء التحليليين الذين عملوا على الإرجاعية والذي يربطها بالنجاح والتطور الإيجابي والعيش بطريقة مقبولة إجتماعيا كما تمثل ايضا بالنسبة إليه نموا جديدا يستدعي ولي إرجاعي (tuteur de la résilience)، وهو ما تحدث عنه الباحثون الأنجلوسكسونيون عندما اشاروا إلى (care givers) (Tisseron, 2007, p23). اما فنيستندل (Vanistendael) فيركز على مكونتين اساسيتين وهما المقاومة كاغلبية العلماء الأنجلو سكسونيين وإعادة البناء وهو يقصد بذلك ان الإرجاعية لا تقتصر على التحدي والمقاومة (عبارة ثابتة statique) فقط بل ايضا قدرة بناء وإبداع حياة جديرة بان تعاش، نفس الفكرة نجدها عند (روتر) والذي يرى ان الإرجاعية ليست فقط مجرد مقاومة بل تعني ايضا تطورا أو احد مظاهره فالإرجاعية هي إستجابة وقدرة تحكم في الوضعيات الصعبة من اجل الوصول إلى تغييرها بنجاح (Anus, 2002, p45) وهناك من التحليليين من يحددون الإرجاعية في تحقيق الفرد لحياة مرضية رغم الصعاب والشدائد (Detchy, 2001).

رغم ان كل تعريف من التعريفات السابقة ركز على جوانب معينة كما أسلفنا إلا أن أغلبية التعاريف تتفق على ان هذه الأخيرة ترتبط بالإرتداد بعد مواجهة وضعية صعبة(شدة، محنة،صدمة) بالإضافة إلى تحقيق نمو عادي نسبيا بفضل موارد الفرد والمتمثلة في عوامل الحماية الداخلية والخارجية وهي بذلك تقترب او تتشابه مع مفاهيم اخرى في علم النفس كمفهوم الصلابة(endurance) والوعي او الإحساس بالتماسك (Sens de cohérence) وكذا إستراتيجيات المواجهة (coping) ولإزالة اللبس ولتحديد اكبر ودقة اكثر في المفهوم يجب إيضاح إن كانت هناك علاقة بين الإرجاعية وكل هذه المفاهيم ام هي مترادفات.

ما هي نقاط التوافق والإختلاف بين الإرجاعية والمفاهيم المذكورة ؟

التحمل أو الصلابة (endurance):

إخترعت " كوبازا" و" مادي" (Cobasa, et Madi) مفهوم الصلابة كي تصف الأشخاص اللذين رغم الظروف الصعبة يبقون في صحة جيدة، إذ تشكل الصلابة بالنسبة لهما نموذج من الشخصية يتضمن ثلاثة خصائص هي : التحكم والالتزام والتحدي، فيتضمن التحكم الاعتقاد انه يمكننا التأثير على ما يقع لنا ويعني الالتزام المشاركة في نشاطات عديدة وخاصة النشطات الإجتماعة اما التحدي فيتمثل في اعتبار التغيرات كفرص من اجل التطور وليس تهديدات. (Shweitzer, 2002, p253) يعبر هذا المفهوم عن قدرة التحمل التي تعكس نمطا معرفيا وإنفعاليا وسلوكيا من المقاومة للإرهاقات (سامر جميل رضوان، 2007 ص180).

الوعي أو الإحساس بالتماسك (Sens de cohérence):

يعني هذا المفهوم تجمع (constellation) الخصائص المعرفية والانفعالية بصورة دائمة فالفرد المتماسك يدرك الأحداث الخارجية والأحداث المتعلقة بحياته كوقائع مفهومة (مهيكلة، متوقعة، قابلة للتفسير وواضحة او متحكم فيها وذات دلالات) (Shweitzer,2002,p255). كما يعبر التماسك او الترابط عن التوجه العام

حسب انتنوفسكي (1987) "Autonovsky" - حيث يدل عن مدى إمتلاك شخص ما للشعور الدينامي بالثقة وتكون هذه الأحداث قابلة للتنبؤ والتفسير بحيث تكون المتطلبات مثيرة للتحدي وتستحق البدل والالتزام .

وهناك ثلاثة مركبات للوعي بالتماسك :

- القابلية للفهم او للاستيعاب وهي العمليات الحياتية المبنية بشكل موضوعي بحيث يمكن ان تكون قابلة للفهم العقلي او المنطقي وشفافة.
- القابلية للتاثير (Manageability)، اي ان الفرد قادر مبدئيا على ضبط احداث الحياة والسيطرة عليها.
- الامتلاء بالمعنى (المعنوية) (Meaningfulness): اي ان المتطلبات الواجب مواجهتها تستحق ذلك وتقدم للفرد معنا شخصيا (سامر جميل رضوان،2007، ص180- 181).

إستراتيجيات المواجهة : (coping)

يعرفها لازاروس وفولكمان (1984) "Lazarus et Folkman" بانها مجموع المجهودات المعرفية والسلوكية والتي تهدف إلى التحكم او التخفيف او تحمل المتطلبات الداخلية والخارجية التي تهدف او تفوق قدرات الفرد وهي نوعان:

إستراتيجيات المواجهة المركزة على الانفعال:

تعبر المواجهة المركزة على الانفعال حسب لازاروس وفولكمان (1984) عن مجموع الجهود الموظفة من طرف الفرد والتي تعمل على التعديل من الحالات الانفعالية المصاحبة للأحداث الضاغطة ويستعمل هذا النوع من المواجهة مجموعة واسعة من العمليات المعرفية الموجهة نحو التخفيف من حالة التوتر والضيق الانفعالي كالتجنب.

إستراتيجيات المواجهة المركزة على المشكل:

تعمل هذه الإستراتيجيات على تعديل العلاقة المضطربة بين الفرد ومحيطه وذلك بإيجاد حل بديل لهذا الموقف الضاغط أو اتخاذ قرار أو إدارة المشكل.

نقاط التشابه والاختلاف:

- تمثل هذه المتغيرات سوابق إستعدادية للصحة.
- متغيرات معرفية سلوكية.
- تعد هذه المتغيرات نشطة مع المحيط في مواجهة الشدائد.
- عوامل حامية للشخصية ومعدلة للضغط.
- لهذه المفاهيم القدرة على التحكم في الأحداث والوضعيات الضاغطة وتجاوزها.
- عوامل تكتسب من خلال التفاعل مع المحيط.
- انبثقت كلها من النظرية المعرفية التطورية.
- تقيم الإرجاعية الوضعيات تعطيها معنى حسب جهاز معتقدات الفرد وقيمه وهذا قريب من مفهوم التماسك وأيضا التوافق مع الشدائد والأحداث وليست فقط استجابة منعزلة لكن نشاط نفسي حقيقي يدمج الفرد (يذكر هذا بمفهوم الكوبينغ).
- ترتبط الإرجاعية بموقف معين مقارنة بالمفاهيم الأخرى (الصلابة والتماسك وإستراتيجيات المواجهة) التي تعد شاملة وعامة لكل الوضعيات.
- الإرجاعية سيرورة دينامية مقارنة بمفهومي الصلابة والتماسك وإستراتيجيات المواجهة (Shweitzer, 2002).
- تشمل الإرجاعية إستراتيجيات المواجهة المركزة على المشكل (Cambell-Sills, 2005).

رغم هذه التباينات بين هذه المفاهيم إلا أنها ترتبط فيما بينها ولديها دورا أساسيا في حماية الشخص وتحقيق الصحة العامة للفرد.

نستخلص من هذه المناقشة والتي تناولنا من خلالها تحليل مفهوم الإرجاعية انطلاقا من طرحين (الطرح المعرفي والطرح التحليلي) انها عملية معرفية سلوكية أو إمكانية مقاومة وتحكم وتجاوز الشدائد والضغوط من أجل تحقيق نمو عادي نسبيا للفرد بفضل عوامل حماية داخلية وخارجية .

المراجع باللغة العربية:

1- إبراهيم مصطفى (1989) : المعجم الوسيط، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الدعوة إسطنبول- تركيا.

2- ابن المنظور (2003)، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة.

3- جبور عبد النور (1996)، معجم مفصل (فرنسي، عربي)، الطبعة الرابعة، دارا لعلم للملايين بيروت- لبنان.

4- سامر جميل رضوان (2007)، الصحة النفسية، الطبعة الثانية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، الأردن.

5- عبده الراجحي (1979)، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

6- محمد جواد الخطيب (2007)، عوامل مرونة الأنا لدى الشباب الفلسطيني (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، ص 1051- 1088

7- مريم سليم، إلهام الشعراني (2006)، الشامل في المدخل إلى علم النفس دار النهضة العربية بيروت- لبنان.

8- مسعود جبران (1981)، الرائد، معجم لغوي عصري، دار الملايين، بيروت، لبنان.

9- مصطفى حجازي: الإنسان المهدور، دراسة نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان.

10- المنجد في اللغة العربية المعاصرة (2001)، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، لبنان.

11- ياسين الحافظ، سليماني محمد علي، (2004)، إتحاف الطرف في علم النفس، دار العصماء دمشق سوريا.

المراجع باللغة الأجنبية:

12- Anaut, M, (2003) : la résilience, surmonter les traumatismes, édition nathan
13- Cambell- sil; cohen, M.B. stein ; (2005) relationship of résilience to personality,_coping and psychiatric symptoms in young adults, Behaviour reseach and therapie, pp 2-14.
14- Gousset, V, (2005) : Apport de la génétique dans les études sur la résilience, Annale Médical Psychologique, pp 523- 527.
15- Delage, M; "Resilience dans la famille", in résilence, régulation et qualité de vie, Grosbois. N.P, édition, presses universitaires de Louvain, 2009, pp 173- 197.
16- Magali, H, D, Nadeau et K. Bertrant (2000), les facteurs de la résilience child abuse neglect, vol : 24, pp 781- 797.
17- Hanus, M, (2002) : la résilience : à quel prix, edition Maloine.
18- Ionescu, CJ. (2008) : Intervention ecosystemique axée sur la resilience : revue du réseau national de prévention de l'abus et de la négligence de l'enfant N° 20- 21 mai
19- lazarus, R et Folkman, S, (1984) : stress apraisal and coping, new york, spinger publishing.
20- Poletti B, Dobbs, B ; (2001) : la résilience, l'art de rebondir, edition Jonvence, France.
21- Szerman, S ; (2006) : vivre et revivre, édition Robert Lafond, paris.
22- Tisseron, S ; (2007) : la résilience, édition presses universitaires de France.

مواقع على الإنترنيت :

ملتقى حول الجلد، 17-18 مارس 2007، بيرزيت- فلسطين :
Autourdelaresilience.blogspot.com. /2007_03_01_a...